اعترافات القديس أوغسطين

بقلم
الدكتور زكريا ابراهيم
أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب — جامعة القاهرة

١ — مقدمة عامة

رسم أحد الباحثين المعاصرين شجرة مفصلة للفلسفات الوجودية ، فأدخل فلسفة القديس أوغسطين جنباً إلى جنب مع فلسفة سقراط وفلسفة الرواقيين ضمن ما سمّاه باسم « جذور الشجرة الوجودية » . ولئن كان من التعسّف فى رأينا أن ننسب إلى القديس أوغسطين «فلسفة وجودية» بالمعنى الاصطلاحىّ الدقيق لهذه الكلمة ، إلا أنه من المؤكد أن تفكير أوغسطين قد اتسم بطابع وجودى واضح ، نظراً لأن هذا التفكير قد نبع من أعماق حياته الروحية ، فكان ثمرة لما عاناه صاحبه من صراع حى وتوتر عنيف وثراء باطنى . الخ . والحق أن أوغسطين قد عاش فلسفته وفلسف حياته ، فلم ينفصل وجوده لحظةً عن مذهبه ، إن لم نقل بأن هذا المذهب نفسه لم يكن سوى سلسلة من الخبرات المعاشة التى كابدها هذا المفكر المسيحى . وإذن فليس بدعاً أن يذهب كثيرون إلى وجود « بذور وجودية » فى فلسفة أوغسطين ، خصوصاً وأن فيلسوفنا قد قدم لنا « سيرة ذاتية » صوّر لنا فيها تطوّره الروحى ، وأظهرنا من خلالها على الصلة الوثيقة التى طالما جمعت بين حياته وفكره . وليست هذه « السيرة الذاتية » سوى كتاب « الاعترافات » الذى أجمع كثير من مؤرخى الفلسفة على اعتباره « تحفة نادرة » فى تاريخ التراجم الذاتية التى انحدرت إلينا من القرون الأولى للمسيحية ، أو على الأصح من عهد آباء الكنيسة الأولين .

وإذا صح أن الفلسفة الوجودية إنما تنطق بلسان الموجود البشرى الذى يضع وجوده موضع التساؤل ، فقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إننا نجد فى تضاعيف كتاب « الاعترافات » أول صورة ضمنية من صور هذه الفلسفة . وآية ذلك أن القديس أوغسطين يقول فى هذا الكتاب بصراحة : « لقد أصبحتُ أنا نفسى مشكلة كبرى بالنسبة إلى نفسى .. » . ومثل هذه العبارة إنما تدلنا بوضوح على أن أوغسطين قد فطن إلى خطورة ذلك الإشكال الوجودى الذى تحمله الذات البشرية فى أعماق وجودها ، فحاول أن يصور لنا فى اعترافاته نزوع النفس البشرية نحو فهم موقفها وتحديد علاقاتها بالله والعالم والآخرين . وليس من شك فى أن كثيراً من الخبرات المعاشة التى وصفها لنا أوغسطين إنما تكشف لنا عن قلق تلك الذات البشرية التى تجد نفسها دائماً متأرجحة بين الوجود

والعدم ، بين الأبدية والزمان، بين الأمل واليأس..الخ فليس كتاب « الاعترافات »مجرد ترجمة ذاتية للقديس أوغسطين ، بل هو أيضاً دراما حية تصف لنا السبيل الشاق الذى تَنْتَهِجُه النفس البشرية فى بحثها عن « الخلاص » أو « النجاة » .

٢ — سيرة القديس أوغسطين

ليس من العسير على المؤرخ أن يكتب وصفاً تفصيلياً لحياة القديس أوغسطين ، فقد تكفّل هو نفسه بالترجمة لسيرته ، فضلاً عن أنّ صديقه وتلميذه پوسيديوس Possidius قد قدّم لنا سيرة مطوّلة له ، أيدّ فيها معظم ما أورده أوغسطين نفسه فى اعترافاته . ولن نطيل الحديثَ عن حياة القديس أوغسطين ، ما دمنا سنتعرض بالتفصيل — فيما يلى — لمضمون كتابه ، وإنما سنقتصر على ذكر الخطوط العريضة فى حياته ، دون التوقف عند تحليل دلالاتها النفسية . وحسبنا أن نقول إن أوغسطين قد ولد بمدينة تاجسطه Thagaste (الواقعة بالقرب من تونس) فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ٣٥٤ ميلادية ، من أم مسيحية وأب وثنيّ . والظاهر أن هذه النشأة المزدوجة التى كان على أوغسطين منذ صباه أن يتحمل آثارها ، قد ولَّدَتْ فى نفسه ضرباً من الصراع العنيف ، فكان على الصبىّ أن يحاول إرضاء أمه التى كانت متدينة كأشد ما يكون التدين ، كما كان عليه فى الوقت نفسه أن يشبع طموح أبيه الذى كان لا يأبه إلا بتهيئة مستقبل ناجح لولده الصغير . ولم يلبث أوغسطين أن وجد فى صحبة السوء متنفساً واسعاً لإشباع شهواته وأهوائه ، فانقـاد لسحر اللذة ، وانتهج طريق الغواية . وقد روى لنا أوغسطين فى اعترافاته كيف كانت نفسه بطبيعتها جامحة متمردة ، وكيف كان الجانب الحسى الشهوانى فيها قوياً عنيفاً إلى أقصى حدّ ، لدرجة أن والدته لم تستطع أن تكبح جماح نفسه ، أو أن تضع حدا لشهواته العارمة . وليس فى استطاعتنا أن نتوقف طويلاً عند كل ما أورده أوغسطين عما مرّ به فى طور المراهقة من أحداث وتجارب ، وإنما حسْبنا أن نقول إن فيلسوفنا قد اعترف بأنه انساق فى شبابه للطيش والتهوّر ، فكان يحب لمجرد الحب ، وكان يجد لذة كبرى فى ألا يستحى مما اعتاد الناس أن يستحوا منه ! وهكذا كانت حياته — فى هذه الفترة — مصدر ألم عميق لوالدته المسيحية المتدينة ، حتى إنها كانت تذرف الدمع مدراراً على حياة ابنها الضالّ الذى ظل سـادراً فى غيّه ...

بيد أن أوغسطين الشاب قد أظهر مع ذلك امتيازاً كبيراً فى دراساته ، فلم يشأ أبوه أن يستبقيه إلى جواره ، بل سرعان ما بعث به إلى مادورا Madaura لتعلم الخطابة ، ثم من بعد إلى قرطاجنه Carthage لمواصلة دراساته العليا . وهناك استطاع أوغسطين أن يظفر ببعض الشهادات العليا ، فأصبح معلمًا للبيان . وفى هذه الفترة من حياته ، وقعت بين يديه (بطريق الصدفة) محاورة هورطانسيوس Hortansius لشيشرون ، فاتجهت نفسه نحو محبة الحكمة ، بدلاً من الاقتصار على محبة اللذات وحدها . ولكن الصراع قد بقى عنيفاً فى نفسه بين حب اللذة وحب الحكمة ، فلم يلبث أن وقع تحت تأثير المانوية ، خصوصاً وأن هذه الشيعة كانت هى الكفيلة بإشباع حاجته المزدوجة . هذا إلى أن المانويين كانوا يزعمون أنهم قد اهتدوا إلى اليقين ، وهذا بعينه هو ما كان أوغسطين ينشده متسائلاً : « ما الحقيقة ، وكيف السبيل إليها ؟ » . ثم إن المانوية كانت تقول بالثنائية : فكان أهلها ينادون بوجود أصلين هما النور والظلمة أو الخير والشر . ولما كان هذا الأصلان فى رأيهم قديمين ، فقد كانوا يذهبون إلى أنه ليس فى وسع المرء أن يتخلص منهما . ولاشك أن أوغسطين قد وجد فى هذا الزعم مايبرر سلوكه

الشهوانى الفاجر ! وهكذا اطمأنت نفس أوغسطين — حيناً من الزمن — إلى مذهب المانوية ، حتى شاء الله لها أن تفطن إلى ما يثيره هذا المذهب من إشكالات لا يقدم لها أى حل ، فكان أن تحول أوغسطين عن المانوية بعد أن ظل واقعاً تحت تأثيرها قرابة تسع سنوات كاملة كان خلالها صاحب نزعة عقلية متطرفة .

ثم انتقل أوغسطين إلى روما ، وهناك بدأ الشك يراوده فى صحة الكثير من تعاليم المانوية ، ولم يلبث أن وجد فى كتب الشُكّاك من رجال الأكاديمية الجديدة ما يوافق حالته النفسية فى ذلك الحين ، فعكف على قراءة كتبهم ومناقشة آرائهم ، وخُيّل إليه أنه اقتنع بأقوالهم فى استحالة اليقين وضرورة الإقلاع عن كل بحث يستهدف المعرفة ! ولكن روح أوغسطين القويّة العارمة ما كانت لتركن إلى الشك أو تقنع بالارتياب ، فلا غرو أن نجدها تجتاز بسرعة هذه المرحلة المؤقتة التى اتسمت بالتردُّد والقلق والحيرة . وهكذا استطاع أوغسطين عام ٣٨٦ ميلادية أن ينتصر على شكوكه ، فكانت هذه السنة بمثابة نقطة تحوّل هامة فى كل حياته الروحية . وقد وصف لنا أوغسطين بالتفصيل شتّى العوامل التى أدت به إلى اجتياز مرحلة الشك والظفر بنعمة اليقين والإيمان ، كما سنرى فيما بعد عند تحليلنا لكتاب « الاعترافات » .

ولكن أوغسطين لم يصل إلى المسيحية إلاّ عَبْر تعاليم الأفلاطونية المحدثة : فقد وجد فى كتب الأفلاطونيّين المنقولة إلى اللاتينية حلاًّ للكثير من مشكلاته العقلية ، كما لقى فيها إشباعاً لنزعته العقلية التى كانت تنشد اليقين وتلتمس الوضوح ، وتبغى المعرفة . ولئن اختلف المؤرخون حوْل مدى اقتناع أوغسطين بتعاليم الأفلاطونية المحدثة ، إلا أنهم مُجْمعون — أو شبه مُجْمعين — على القول بأن فلسفة الأفلاطونيّين المحدثين قد اقتربت بأوغسطين من أعتاب الكنيسة المسيحية ، فلم يلبث أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من تعاليم الكتاب المقدس . حقاً إن الأفلاطونية وحدها لم تستطع أن تحل أزمته النفسية ، كما أنها لم تنجح فى التخفيف من حدة الصراع بين الروح والجسد فى أعماق تلك الشخصية العنيفة الجامحة ، ولكن من المؤكد أنها مهّدت السبيل أمام أوغسطين للاقتناع بالنظرية المسيحية فى « الكلمة » أو « اللوغوس » Logos .

ثم لم يلبث أوغسطين أن التقى فى ميلانو بالقديس أمبروسيوس (أمبرواز) St. Ambroise أسقف المدينة ، فكان لهذا القديس تأثير كبير فى حياة أوغسطين : إذ استطاع أن يحلّ له الكثير من المشكلات التى كانت تؤرّقه . وكان القديس أوغسطين — فى هذه الفترة — يديم التفكير ويمعن النظر ، كما كان بعض أصدقائه يشجعونه على قراءة الكتاب المقدس والتعمق فى فهم معانيه ، فعكف فيلسوفنا على مطالعة رسائل القديس بولس ، وبدأ يتأثر بما تنطوى عليه تلك الرسائل من حقائق سامية ومعان جليلة . وبينما كان أوغسطين يوماً جالساً فى حديقة بصحبة بعض أصدقائه ، إذ اضطربت نفسه بما فيها ، وأخذت الدموع تتساقط غزيرة من عينيه ، فقام يبكى صائحاً : « إلى متى هذا التسويف ؟ ولماذا أقول غداً غداً ؟ لماذا لا تكون هذه اللحظة نفسها هى الحدّ النهائى الحاسم لعهد الطيش والنزق ؟ » . وفى تلك اللحظة كان إلى جواره صبىّ يرنّم قائلا : « خُذْ واقرأ » : Tolle, Lege ، فاعتبر أوغسطين هذا الصوت بمثابة نداء إلهى ، وأخذ الكتاب المقدس وفتحه ، فكان أول ما وقع عليه بَصَرُه هو قول القديس بولس : « ... إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم . قد تناهى الليل وتقارب النهار ، فلنخلع أعمال الظلمة ، ونلبس أسلحة النور ... الخ » . (روميه ١٣ : ١١ — ١٤) . وما أن استقرت فى ذهنه معانى هذه الكلمات ، حتى

عمرت السكينة قلبه ، فامتلأت نفسه بالسلام العميق ، ونعمت روحه بالراحة الكاملة .

وقد تلقى أوغسطين طقس « العماد » على يد القديس أمبروسيوس عام ٣٨٧ ، فاكتملت له بذلك نعمة الإيمان ، وتحققت لوالدته أعزّ أمانيها فيه . ولكن أوغسطين قد بقي يشعر دائماً بأن معرفته لله قد جاءت متأخرة ، فكان يهتف قائلاً : « بَعْدَ لأْيٍ مَا أحببتُكَ يا إلهي ! » : Sero te amavi . ومنذ ذلك الحين ، هجر أوغسطين مهنة تعليم الخطابة ، واشتغل بدراسة المسيحية والدفاع عنها ، فألف في ذلك الكثير من الكتب القيمة والدراسات الهامة ، ووضع العديد من الرسائل الدقيقة والشروح العميقة في تفسير أجزاء متفرقة من الكتاب المقدس . ومن أهمّ مؤلفاته رسالته في « الرّد على الأكاديميّين » Contra Academicos ، وكتابه المسمى باسم «الحياة السعيدة» De beata vita ، ومصنَّفه المشهور المعروف باسم « المناجاة » Soliloquiorum ، ثم كتابه في « خلود النفس » : De immortalitate animæ ، علاوة على كتب أخرى عديدة في « حرية الإرادة » : De libero arbitrio ، وفي « الديانة الحقيقية » De vera religione وفي « فائدة الاعتقـــاد » "De utilitate credendi ، وفي « التثليث » : De Trinitate ، إلى جانب بعض المحاورات الصغيرة التي كتبها على الطريقة الأفلاطونية ... الخ . ولكنْ ربما كان أعظم مؤلفات أوغسطين جميعاً هو كتابه الكبير المعروف باسم «مدينة الله» De civitate Dei الذي كتبه في الفترة ما بين سنة ٤١٣ وسنة ٤٢٦ (في اثنين وعشرين فصلا) ، وترجمته الذاتية المشهورة : « الاعترافات » : Confessionum التي سجّلها حوالي سنة ٣٨٩ (في ثلاثة عشر فصلا) ، وكان عمره عندئذ حوالي ٤٤ عاماً ، أعني بعد أن كان قد تلقى طقس العماد بمدة تبلغ نيّفاً وأحد عشر عاماً .

وقد عُيِّن أوغسطين أسقفاً لمدينة هِپُّون Hippone سنة ٣٩١ ، وظل يشغل هذا المنصب الديني الكبير قرابة أربعين عاماً كان خلالها نموذجاً للراعي الصالح ، إلى أن وافته المنية عام ٤٣٠ بعد حياة طويلة مليئة بالجهاد والعمل ، حافلة بالنشاط والإنتاج . وقد قضى القديس أوغسطين فترة كبيرة من حياته مناضلا ومدافعاً عن العقيدة المسيحية ضد شتى البدع الغريبة والشيع الفاسدة ، فتصدى للرد على بلاجيوس Pélage (الذي كان ينكر فكرة الخطيئة الأصلية ويَجْحَد القول بالنعمة أو اللطف الإلهي) ، كما هاجم أنصار بدعة آريوس (الذين كانوا ينكرون تعاليم الكنيسة حول مساواة الكلمة لله) ، فضلا عن أنه قد عُنِيَ بالرّد على المانويّين وغيرهم من « المراطقة » . ولكنْ ربما كانت أهمية أوغسطين الكبرى في تاريخ الفكر إنما ترجع أولا وبالذات إلى أنه لم يقدم لنا فلسفة إيمانية fidéisme لا تدع للعقل أي دور في صميم الاعتقاد الديني ، بل هو قد قدم لنا محاولة فلسفية أصيلة من أجل تعقّل الإيمان المسيحي ، ففتح بذلك السبيل أمام القديس أنسلم St. Anselme الذي سيقول فيما بعد : « إن العقل ينشد الإيمان ، والإيمان — بدوره — ينشد العقل » .

٣ — فن الترجمة الذاتية عند أوغسطين

ليس القديس أوغسطين صاحب أول « ترجمة ذاتية autobiographie عرفها التاريخ ، ولكن ربما كان هو أول من فتح السبيل أمام غيره من الأدباء لكتابة هذا النوع الخاص من الإنتاج الأدبي . ولو أننا عدنا — مثلاً — إلى الأدب اليوناني ، لوجدنا أنه كان فقيراً في هذا النوع من الأعمال الأدبية ، وإن كنا قد نلتقي لدى صولون أو امباذو قليس أو إكسينوفون أو غيرهم ، ببعض روايات تحدثوا فيها عن أنفسهم ، أو قصّوا فيها علينا طَرَفاً من وقائع حياتهم . ولكن الظاهر

أن اليونانيين لم يكونوا يميلون كثيراً إلى هذا النوع من التأريخ الذاتى ، بدليل أن أرسطو نفسه قد نص فى كتابه « الأخلاق إلى نيقوماخوس » (الفصل الرابع الفقرة الثالثة ٣١) على أن الرجل المثالى أو الرجل الكامل « لا يتحدث عن الآخرين . ولا يشير إلى نفسه من قريب أو بعيد ! » . بل ان فكرة تطور الفرد — التى تستلزمها بالضرورة كل ترجمة ذاتية — لم تكن تدخل ضمن الأفكار العادية المألوفة لدى الروح اليونانية وهذا هو السبب فى أن اليونانيين حينما كانوا يدرسون أىَّ انسان — فنانا كان أم أديباً أم فيلسوفاً — فإنهم لم يكونوا ينظرون إليه إلا فى مرحلة تُضْجِه واكتماله أعنى فى تلك اللحظة الحاسمة من تاريخه حين تصل شخصيته إلى أوج عظمتها ، وهى اللحظة التى كان النقاد اليونانيون يسمونها باسم « الذروة » أو « القمة » acmè . وأما عند الرومان — وهم شعب كان يتمتع بعقلية أقرب إلى الواقعية وأميل إلى الحقيقة العينية — فقد لقى الأدب « الشخصى » حظا غير قليل من الازدهار ، كما كثر عندهم — بصفة خاصة — كُتَّاب « اليوميات » أو « المذكرات الخاصة » . ومن هنا فقد ظهر فى الأدب الرومانى — منذ بداية القرن الأول للمسيحية — كُتاب وشعراء عديدون سجلوا لنا ذكرياتهم الخاصة ، مثل سيلا Sylla وڤارون Varron وشيشرون Cicéron وغيرهم . ولولا تردُّد الكُتاب اللاتينيين أو خوفهم من اقتحام ميادين أدبية جديدة لم يسبقهم إليها اليونان ، لقدموا لنا إنتاجا أدبياً بارعاً فى هذا الميدان الخاص من ميادين التأريخ أو كتابة السير . وحسبنا أن نعود إلى مرقس أورليوس Marc-Aurèle (الذى كتب باليونانية ، وإن كان قد وُلِد فى روما) لكى نطالع فى « تأملاته الشخصية » تلك الصفحات الرائعة التى يصف لنا فيها خبراته الذاتية ، وأزمات ضميره الخاص ، وشتى حالات اليأس والقلق والدوار العقلى التى اجتازها فى سعيه نحو الكمال . ولكن مهما كان من دقة الكثير من الملاحظات الذاتية والتحليلات النفسية التى أوردها لنا مرقس أورليوس فى مذكراته الخاصة ، فإن من المؤكد أننا لا نستطيع أن نقارن أمثال هذه التأملات الجزئية العرضية باعترافات القديس أوغسطين التى تناولت حياته الخاصة وصفاً وتحليلا بكل تفاصيلها وفى كل مراحل تطوُّرها . ومن هنا فقد أجمع النقاد على اعتبار « اعترافات القديس أوغسطين » عملاً أدبيا فذّاً فى تاريخ الفكر الغربى خصوصاً وأن هذه « الاعترافات » قد نقيت من الذيوع والانتشار قدر ما لاقاه كتاب « محاكاة المسيح » The Imitation of Christ وكتاب « مسار الحاج » Pilgrim's Progress .

وليس بدْعاً أن ينتشر فن « الترجمة الذاتية » فى العالم المسيحىّ : فإن الديانة المسيحية كانت تدعو المؤمن إلى فحص ضميره ، وتعرف أسراره ، والانطواء على ذاته من أجل الوقوف على حقيقة بواعثه ... الخ . ومن هنا فإن كتابة « السيرة الذاتية » لم تَعُدْ مجرد استعراض لبعض الجوانب الخارجية أو المظاهر السطحية للحياة الشخصية ، بل هى قد أصبحت بمثابة نفاذ إلى باطن النفس من أجل استبطان ما فيها من مظاهر صراع نفسىّ ، وتحليل ما يكمن فى أعماقها من بواعث نفسية دفينة ، وتأريخ حياتها الروحية العميقة بما فيها من سقطات وعثرات وجهاد مستمر ضد الشرّ ومحاولات شاقة من أجل إصلاح الذات . وقد استطاع القديس أوغسطين — بعبقريته الروحيّة الفذة — أن يوجّه الأنظار إلى أهمية هذا النوع الخاص من التحليل الذاتى للشخصية للبشرية ، فانتشرت فى العالم المسيحىّ طريقة « الترجمة الذاتية » ، وبرع كثير من آباء الكنيسة فى تحليل أنفسهم بعُمْق ودقة وطول باع . ولم يكن أوغسطين هو أول من خاض هذا السبيل ، فقد سبقه إلى ذلك فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى كل من القديس چيروم Saint Jérôme والقديس جريجوار دى نازيانز

Grégoire de Nazianze (الذى نظم قصة حياته على صورة ملحمة طويلة تزيد عن ألف وتسعمائة وتسعة وأربعين بيتاً !) . ولكنّ هاتيّن المحاولتيْن — وغيرهما كثير — لم تبلغا فى ثرائهما الفنى مبلغ اعترافات القديس أوغسطين ، فبقى كتاب فيلسوفنا — فى تاريخ الأدب المسيحىّ — تحفة نادرة لا نظير لها شكلاً وموضوعاً .

وهنا قد يحقّ لنا أن نتساءل : لماذا اهتمّ القديس أوغسطين ، بعد مرور أكثر من أحد عشر عاماً على عماده — بالعودة إلى حياته الماضية ، من أجل العمل على تأريخها ؟ أو بعبارة موجزة : لماذا حرص الأسقف المسيحى الصالح على نشر مخازيه الماضية وفضائحه القديمة على أهل رعيته ؟ هذا ما يجيبنا عليه تلميذه پوسيديوس Possidius بقوله : « إنّ القديس أوغسطين قد كتب اعترافاته ، لكى يكشف على الملأ حياته الخاصة قبل التوبة ، حتى لا يغالى أحد فى تقديره أكثر مما يستحق ، أو حتى لا يحكم عليه أحد بحسب أقواله فيظنه أسمى مما هو عليه فى الواقع ونفس الأمر » ! ومعنى هذا أن « الاعترافات » ليست سوى مجرد آية من آيات التواضع المسيحىّ : فقد وجد أوغسطين نفسه مضطراً إلى الإقرار بحقارة ماضيه ، والاعتراف بدناءة حياته السابقة ، فكتب « الاعترافات » لكى يبيّن للناس أن القداسة التى أصبح يتمتع بها إنْ هى إلاّ مجرد ثمرة للنعمة الإلهية أو اللطف الإلهى la grâce divine . وقد أيّد القديس أوغسطين نفسه هذا التأويل الذى قدّمه لنا تلميذه ، بدليل أنه بعث بخطاب — إلى شخص كان قد أرسل إليه طالباً كتاب « الاعترافات » — يقول فيه : « هأنذا أرسل إليك نسخة من كتاب الاعترافات الذى تطلبه ، فانظر إلىّ جيداً فى هذا الكتاب ، حتى لا تمتدحنى أكثر مما أنا أهلٌ له ؛ ويقينى أنك عندئذ سوف لا تصدّق ما يقوله عنى الآخرون ، بل ما أقوله أنا عن نفسى . وإذن فادرسنى جيداً ، وتفرّس فى تلك الصورة التى كنتُ عليها فى الحقيقة ونفس الأمر ، حينما كنتُ متروكاً لنفسى مستسلماً لقواى الخاصة وحدها » .

وقد حاول القديس أوغسطين نفسه أن يكشف لنا عن الغرض الذى سجّل من أجله اعترافاته فقال فى الكتاب الثانى منها ، مُوجهاً الحديث الى الله : « لمن أروى كل هذه الأمور ؟ إنى لا أرويها لك أنت يا إلهى ، بل انى عندما أخاطبك ، إنما أخاطب الجنس البشرى الذى أنتمى إليه ، مهما كان من ضآلة عدد الذين قد تقع بين أيديهم هذه الصفحات . وماذا عسى أن تكون جدوى هذا الحديث ؟ إنى أريد من ورائه أن يعْرف كلٌ مَن سيطالع قصتى — كما أعرف أنا نفسى — عُمق الهوة التى تتصاعد منها صرخاتنا نحوك . وهل هناك ما هو أدنى إلى سمعك من القلب التائب المُنْسَحِق ، والحياة التقية السائرة على هدى الإيمان ؟ » وهذه العبارة إن دلت على شئ فإنما تدل على أن أوغسطين لم يكن يرمى من وراء اعترافه أمام اللهسوى أن يوجّه الحديث إلى أشباهه من بنى البشر ، حتى يبين لهم كيف يسلك الانسان طريق الهُدى ، وكيف يستطيع الاهتداء إلى الصراط المستقيم . ولهذا نراه يعود فيقرر فى موضع آخر من اعترافاته أنه لم يكن يقصد من وراء سرده لكل تلك الوقائع أن يُطلع الله على شئ كان يجهله ، وإنما كان يرمى من وراء ذلك أن يزكى شعلة حبّه لله ، وأن يولّد فى نفوس الآخرين حبّاً عارماً شبيهاً بحبه هو . (بداية الكتاب التاسع ، والفقرة الثالثة من الكتاب العاشر) وإذن فإن اعترافات القديس أوغسطين هى بمثابة مخاطبة لله ، أو مناجاة للحب الإلهى ولكنها فى الوقت نفسه حديثٌ موجه إلى البشر ، أو نداء حارٌ أريد به دعوة الناس إلى انتهاج سبيل الحق . ولئن كان القديس أوغسطين يعلم حق العلم أن الناس فى العادة أحرص على تعرف أسرار حياة الآخرين ،

منهم على إصلاح حياتهم الخاصة ، فضلا عن أنهم قلما يميلون إلى تصديق مايرويه الآخرون على مسامعهم من وقائع ، إلا أنه مع ذلك لم يتردد لحظة فى كتابة اعترافاته حتى يبين لإخوته فى الإنسانية أنه لا موضع لليأس أو الضعف أو الوهن ، مادامت اليد الإلهية على استعداد دائماً لانتشال تلك النفوس الساقطة التى تردت فى وهدة الخطيئة . وليس من العسير على إنســان ذاق مرارة الشك ، وكابد من صنوف العذاب الروحى مالا حدله أن يأخذ بيد قريبه المتشكك أو الحائر أو المعذب ، لكى يبين له طريق الهُدى ، أو لكى يساعده على الاهتداء إلى سبيل النصرة الروحية .

بيد أن بعضاً من الباحثين — وفى مقدمتهم إرازموس Erasme — قد ذهبوا إلى القول بأن أوغسطين لم يكتب اعترافاته إلا دفاعاً عن نفسه ضد خصومه الذين كانوا يعيرونه بماضيه ، وينتقدون فى شخصه ذلك الرجل المانوى الذى لم يكن ينشد إلا اللذة ! والظاهر أن خصوم أوغسطين قد ظلوا يلاحقونه باتهاماتهم وتجريحاتهم حتى بعد وصوله إلى أسمى المناصب الدينية فليس مايمنع من أن يكون أوغسطين قد كتب اعترافاته للدفاع عن نفسه ، أو — على الأقل — للكشف عن حقيقة ماضيه أمام أولئك الذين كانوا يتهمونه بأنه قد بقى متأثراً ببعض النزعات المانوية . ومما يؤيد هذا الزعم أن أوغسطين قد كتم أسرار حياته الماضية أمداً طويلا من الزمن إلى أن أخذ يشعر بأن أقاويل خصومه عن ماضيه قد بدأت تزعزع من فاعلية نشاطه الدينى فلم يجد بُدّاً من أن يضع الأمر فى نصابه ، وبالتالى فقد وجه نفسه مضطرّاً إلى سرد حياته الخاصة بكل تفاصيلهــا على جمهور المؤمنين من أهل رعيّته . ولا شك أن أوغسطين حين شرع يكتب اعترافاته قد كان بعيد العهد بأحداث طفولته وذكريات شبابه أو هو — على الأقل — قد كان فى حالة نفسية مغايرة تماماً لحالته النفسية فى فترة الطفولة والشباب ، فليس فى استطاعتنا — فيما يرى البعض — أن نعد اعترافاته مجرّد تسجيلات أمينة لماضيه ، وإنما لابد من أن ننظر إليها على أنها « قصة خــلاص » salut أريدبها تثقيف الآخرين دينيّاً ، وإظهارهم على رحمة الله ، ودعوتهم إلى التوبة .

وهنا تُثار مشكلة « أمانة » القديس أوغسطين فى تصويره لحياته ، ومدى صدق الرواية التى قدّمها لنا عن نفسه ، فنرى بعض الباحثين يميلون إلى التشكيك فى صحة بعض الوقائع ، كما نجد آخرين يقررون أن أوغسطين قد نقح وعدّل فى بعض الأحداث حتى يجعل من حياته سيرة منسجمة متماسكة . وقد اعترف القديس أوغسطين نفسه (فى الكتاب الثالث : الفقرة ٢١) أن بعض التفاصيل الصغيرة من حياته لابدّ من أن تكون قد غابت عن ذاكرته ، ولكنْ ليس مايبرّر — فى نظرنا — الطعن فى نزاهة أوغسطين أو التشكيك فى صحة روايته . ولئن كان هناك اختلاف واضح بين اللهجة التى كتب بها أوغسطين محاوراته فى كاسّيكيوم Cassicium غداة عماده ، وتلك النبرة الحماسية التى اصطنعها من بعد عند تسجيله لمشاعره الخاصة إبان فترة تردّده وشكوكه ، إلاّ أن من المؤكد أن جانباً كبيراً من هذا الاختلاف إنما يرجع إلى « الأسلوب » الذى اصطنعه أوغسطين فى كل من « المحاورات » و « الاعترافات » . وقد كتب أوغسطين محاوراته عقب تحوّله أو توبته مباشرة ، وكانت نفسه عندئذ قد بلغت مرحلة من السكينة الروحية أو الطمأنينة النفسية ، فلم يكن فى وسعه أن يصف لنا بدقة شتى حالات القلق والتوتر والتمزق الباطنى التى كان يعانيها قبل التوبة . هذا إلى أن قواعد « المحاورة » نفسها — على نحوما تعلّمها أوغسطين — كانت تفرض على الكاتب أسلوباً خاصاً فى الكتابة ، فلم يكن بُدّ له من أن يشيع فى جو المحاورة روح المؤاخاة والمودّة والمرح ، مع إغفال شتى مظاهر القلق أو التوتر أو الكآبة ، مما لا يتناسب مع طبيعة

الحياة الاجتماعية . وليس ما يمنعنا مع ذلك من أن نفترض — كما يظهر من بعض عبارات أوغسطين فى تلك المحاورات نفسها — أن وراء تلك الحياة الاجتماعية الهادئة التى كان أوغسطين يحياها بالقرب من آله وأصدقائه ، إنما كانت تكمن حياة باطنية عميقة أغلب الظن أنها كانت حافلة بلحظات « المونولوج الداخلى » . ومن هنا فقد كانت لأوغسطين — حتى غداة توبته — حياته الخاصة العامرة بالعبادة الصامتة والدموع المستترة ، وإن كان الآخرون قد ظلوا يجهلون كل شئ عن هذا الجانب السرى الخفى من حياته الخاصة .

وأما إذا نظرنا إلى اعترافاته التى كتبها بعد توبته بنحو أحد عشر عاماً ، فإننا نلمح فيها بوضوح قلبا مضطرماً بالعاطفة والإيمان ، ولهجة شعرية تفيض رقة وعذوبة . والوقائع أن اعترافات أوغسطين هى أشبه ماتكون بسيمفونية حقيقية تتداخل فيها تارة ، وتتعاقب تارةأخرى ،أنغامُ الشك والتردد ،والخوف ، والحيرة والقلق ، والمحبة ، والتوبة ... الخ . وحينما يقرأ المرء تلك العبارات العاطفية الدافئة التى تخفق فيها صيحات الندم ، والحنين ، والشوق ، والتوبة ، فإنه لا يملك سوى التمايل على أنغام تلك الموسيقى الروحية العذبة التى سجّلها لنا قلب كبير انتشى بخمر الحب الإلهّى ! وحتى لو سلمنا مع بعض الباحثين بأن أوغسطين قد خلع علىواقعة« تحوله » conversion أو«توبته »طابعاً دراميًّا ، فإن هذا لن يمنعنا من الاعتراف بما فى « ترجمته الذاتية » من صدق فنىّ . وليس من شك فى أن أوغسطين الذى تعلم فى صباه فن البلاغة ، وتأثر فى شبابه بشعر التوراة ، لم يكن ليستطيع عند الحديث عن نفسه أن يتجنب تلك الصبغة الوجدانية أو ذلك الطابع الغنائى lyrisme الذى اعتاد اصطناعه فى كل كتاباته . وإذن فليس بدْعاً أن نراه فى بعض الأحيان يضفى على بعض الأحداث البسيطة التى مرت به قديماً (دون أن تثير لديه أى قلق أو لهفة) طابعاً رومانتيكياً حادا ، وكأنما هى وقائع درامية عنيفة اهتزّ لها كل كيانه . ولكنْ ، مهما يكن من شئ ، فان صاحب « الترجمة الذاتية » لابدّ من أن يجد نفسه مدفوعاً — إنْ من حيث يدرى أوْ من حيث لايدرى — نحو التهويل فى وصف أحداث حياته ، والمبالغة فى تصوير « دراما » وجوده . وسنرى فيما بعد إلى أى حد نجح القديس أوغسطين فى تجنب العثرات التى طالما تردى فيها كتاب « التراجم الذاتية » فى كل زمان ومكان .

٤ — تحليل كتاب « الاعترافات »

ينقسم كتاب« الاعترافات » إلىثلاثة عشرفصلاً[1] تناول فيها القديس أوغسطين بالتفصيل ذكريات طفولته وتجارب شبابه ، وشتى أحداث حياته ، محاولاً فى الوقت نفسه تحليل مضمون هذه الخبرات االنفسية فى ضوء فهمه الروحى لمعنى الحياة الإنسانية . ولو شئنا أن نُحلل هذه الاعترافات إلى عناصرها البسيطة ، لكان فى وسعنا أن نردّها إلى العناصر الأربعة التالية :

أولا — وقائع محدّدة كان لها تأثير واضح على حياة أوغسطين وتفكيره ، فكانت مبعثاً لتأمُلات روحية ذات طابع عام .

ثانياً — أحكام تقديرية لم يصدرها أوغسطين — بطبيعة الحال — فى نفس الفترة التى حدثت فيها تلك الوقائع ، وإنما أصدرها فيما بعد عند تسجيله لاعترافاته أى حوالى عام ٣٩٨ .

ثالثاً — ابتهالات وصلوات وتسبيحات تمثل أيضاً عنصراً جديداً ، لأنها صادرة عن قلب أوغسطين التائب النادم على خطاياه الماضية المعترف فى الوقت نفسه بنعم الله عليه .

---

(١) يسمى أوغسطين كل فصل من هذه الفصول باسم «كتاب» ففى الاعترافات ثلاثة عشر كتاباً

رابعاً : مناقشات فلسفية وسيكولوجية لاتتصل أحياناً اتصالاً مباشراً بالسرد التأريخي ، ولكنها تنصب فى معظم الأحيان على مضمون خبراته المعاشة أو تجاربه الروحية . وهذه المناقشات تحتل مكاناً هاماً خصوصاً فى الفصول الثلاثة الأخيرة من الاعترافات حيث نجد القديس أوغسطين يثير مشكلات الخلق ، والزمان ، وقدم العالم ، وطبيعة الله ، والملائكة... الخ . وسنحاول — فيما يلى — أن نقدم للقارئ خلاصة سريعة لأهم ما ورد فى اعترافات القديس أوغسطين .

١ — الكتاب الأول

يبدأ أوغسطين اعترافاته بالحديث عن عظمة الله ، وعمق محبته ، وضآلة الموجود البشرى ، فيقول إن الإنسان قد خُلِقَ لله ، « وإن النفس البشرية لتظل قلقة حائرة حتى ترتاح فى الله » ويتوقف أوغسطين طويلاً عند مرحلة « طفولته المبكرة » ، لكى يحدثنا عما اعتاد الناس تسميته باسم « براءة الطفل فى المهد » ، معقباً على هذا الزعم بقوله إن الطفولة نفسها لا تخلو من خطيئة ، مادام الإنسان لابدّ من أن يخطئ فى حق الله ، حتى ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض ! وأوغسطين هنا ينسب إلى الأطفال رذائل كثيرة كالجشع ، والغيرة ، والعناد ، وقلة الصبر ، لكى يؤيد النظرية المسيحية القائلة بالخطيئة الأصلية . ومعنى هذا أن براءة الأطفال المزعومة إنما هى — فى رأى أوغسطين — مجرد مظهر لضعف تكوينهم ونقص أعضائهم ، دون أن يكون هناك ما يشهد حقاً ببراءة نفوسهم أو طهارة ضمائرهم ! ولكن كان أوغسطين يعترف بأنه لا يتذكر الكثير عن أيام طفولته الأولى ، إلا أننا نراه يحدثنا عن نزوات الطفولة وسقطاتها وشتى مظاهر ضعفها ، وكأن لسان حاله يقول : « إن الطفل ماهو إلا مذنب صغير » ! ويمضى أوغسطين فى حديثه عن طفولته ، فيروى لنا بعض الملاحظات السيكولوجية الهامة عن طريقة تعلّم الطفل للكلام ، كما يقص علينا بعض الصعوبات التى اصطدم بها فى بداية حياته الدراسة . وأوغسطين يعترف صراحة بأنه لا يتذكر حياة المدرسة بارتياح بالغ ، فقد كان من عادة المعلّمين وقتئذ إنزال العقوبات الصارمة بالتلاميذ ، فضلاً عن أنه هو نفسه لم يكن يدرك فائدة الدروس التى كان يتلقاها ، هذا علاوة على ميله الشديد إلى اللعب واللهو ... وعلى الرغم من نصائح والديه ، وإرشادات معلّميه ، فقد كان أوغسطين يجد صعوبة كبرى فى قهر نفسه على مواصلة الدراسة ، خصوصاً وأنه كان يضيق ذرعاً بحياة الضغط والقَسْر ، فلم يكن من السهل عليه أن يكون تلميذاً طيّعاً سلس القياد . وعلى الرغم من أن أوغسطين كان يبغض اللغة اليونانية بصفة خاصة ، فضلاً عن أنه لم يكن يميل إلى الأساطير والخرافات ، إلا أنه قد برع منذ نعومة أظفاره فى حفظ الأشعار اللاتينية والتعبير عنها بالنثر البليغ . وهو يروى لنا فى الكتاب الأول من اعترافاته كيف طغى الاهتمام بالبلاغة وحسن التعبير عنده على كل اهتمام آخر ، فلم يكن يحفل بالاعتبارات الأخلاقية ، وإنما كان مثله الأعلى هو التفوق على الآخرين ، وإرضاء ميله إلى حب الظهور ، والانتصار على رفاقه (حتى ولو كان ذلك عن طريق الغش !) . ولئن كان أوغسطين يعترف فى خاتمة هذا الفصل الأول بأن الله قد وهبه الكثير من الاستعدادات الجسمية والمواهب العقلية ، إلا أنه يقر فى الوقت نفسه بأنه لم يكن يحسن فى طفولته الأولى استخدام تلك القدرات الجسمية والعقلية ، ومن ثمّ فإننا نراه يقول عن نفسه إنه كان « طفلا صغيراً ، ومذنباً كبيراً » !

٢ — الكتاب الثانى

يتعرض أوغسطين فى هذا الفصل لدراسة مرحلة المراهقة ، فيروى لنا بالتفصيل شتى الأزمات النفسية التى اجتازها ، كما يسهب فى وصف نزوات طيشه وتهوّره خلال تلك الفترة العاصفة من فترات حياته . وقد ذكر لنا أوغسطين فى هذا الفصل كيف انساقت نفسه للمفاسد والشهوات ، وكيف استسلم جسده للأهواء والملذات ، على الرغم من كل ما كانت توجهه إليه أمّه من نصائح وإرشادات . وأوغسطين يقرر هنا أنه كان يرفض كل نصائح أمه، لمجرد أنها قد صدرت عن امرأة ، دون أن يعلم أن الله نفسه هو الذى كان يكلّمه على لسان تلك المرأة . وأما أصدقاء السوء الذين تعرف بهم فى هذا الطور فما كان أكثرهم ، وما كان أشد تأثيرهم فى نفسه ، خصوصاً فى فترة العطلة التى قضاها إلى جوار والديه . وأوغسطين يروى لنا قصة سرقة جماعية اشترك فيها مع بعض الرفاق : فقد مضوا جميعاً بعد منتصف الليل إلى حديقة مجاورة كان بها شجرة كمثرى محمّلة بالأثمار ، وراح الجميع يحركون الشجرة بعنف حتى يتساقط جناها وقد حملوا من تلك الفاكهة الشىء الكثير ، ولكنهم لم يفعلوا به شيئاً ، وإنما مضوا فألقوا به إلى الخنازير ! ... ولم تكن تلك الثمار جذابة اللون أو حلوة الطعم ، وإنما كانت لذة الأكل من الشىء المحرم الممنوع هى التى أضفت على تلك الثمار من عذوبتها ما جعل أولئك الرفاق يجدون فيها طعما مستعذباً حلو المذاق ! ويُعقّب أوغسطين على هذه القصة بقوله إن حُب الشرّ الذى تسلّط على نفوس هؤلاء الصغار هو الذى حدا بهم إلى ارتكاب هذه السرقة، لا لشىء إلاّ لكى يلحقوا الأذى بالآخرين ! وأوغسطين يقرر هنا أنه كما أن المرء قلما يضحك بمفرده ، فان المرء قلّما يستعذب الخطيئة بمفرده ! وهو يقول لنا إنه لو كان بمفرده ، لما فكر فى ارتكاب تلك السرقة . ولكن « صحبة السوء » هى التى سولت له الاشتراك فى هذه الجريمة ، دون أن تكون له فى ذلك أدنى مصلحة أو أقل فائدة ! « ويكفى — بين رفاق السوء — أن يصيح الواحد منهم فى الآخرين : « هلموا بنا نرتكب هذا الشرّ » ، لكى يستحى الواحد منهم من حيائه ! » (الكتاب الثانى ، الفقرة ١٧) .

٣ — الكتاب الثالث

يحدثنا أوغسطين فى هذا الفصل عن حياته فى قرطاجنة من سنّ السابعة عشرة إلى سنّ التاسعة عشرة . وهو يروى لنا فى مستهل حديثه كيف كانت نفسه فى تلك الآونة متعطشة للحبّ ، لدرجة أنه كان يسعى جاهداً فى سبيل الحصول على موضوعٍ لحبّه ، وكأنما هو قد كان يحبّ الحب نفسه ! ثم يستطرد أوغسطين فيحدثنا عن وَلَعه بالمسرح ، وحرصه على البحث عن الانفعالات النفسية الحادة ، ممّا كان يدفعه إلى مشاهدة المسرحيات العنيفة التى كانت تهيّج عواطفه وتثير لواعج قلبه . وأوغسطين يهتم هنا بتحليل مضمون أمثال هذه الانفعالات الجمالية ، لكى يكشف لنا عن السرّ فى إقبال الناس على المسرحيات المؤثّرة التى تستدرّ دموعهم وتحرك كوامن مشاعرهم ... ثم ينتقل أوغسطين إلى الحديث عن حياته الدراسية فى تلك الآونة ، فيبيّن لنا كيف أنه كان يتقدم فى دراسته ، على الرغم من انصرافه إلى الكثير من المغامرات الغرامية . وهو يروى لنا قصة اطلاعه على محاورة شيشرون المسماة باسم « هورطنسيوس » Hortensius ، وهى تلك المحاورة التى كانت تنطوى على دفاع حارّ عن الفلسفة بوصفها بحثاً عن الحكمة . ولكنه يعترف بأنه لم يستطع فى تلك الفترة أن يفيد الكثير من قراءته للكتاب المقدس ، لأنه لم ينجح فى تفهُّم مضمون الكثير من عبارات التوراة . ثم كان التقاء أوغسطين بالنزعة المانوية ، فقد وجد فيلسوفنا لدى جماعة

المانويّين إشباعاً لرغبته النظرية فى المعرفة ، وإرضاء لنزوعه العمليّ نحو اللذة . وكان المانويّون يفسّرون الشر بأنه أصل من أصول الكون ، فضلا عن أنهم كانوا يقولون باستحالة التخلص منه ، فلم يتردد أوغسطين فى التسليم بهذه النظرية التى كان فيها تبرير كاف لمسلكه الشهوانى الفاجر ! ويمضى أوغسطين فى شرحه للأسباب التى دفعته إلى اعتناق المانوية ، لكى يَخْلُص إلى القول بأنه لم يكن يعرف أن الله باطنٌ فى نفسه أكثر مما هو نفسه باطن فى ذاته ، وأن الشرّ ليس إلا سَلْب محض أو مجرد عَدَم للخير ... الخ . وفى نهاية هذا الفصل ، يحدثنا أوغسطين عن والدته سونيكا Monique التى كانت تصلّى بحرارة من أجله ، طالبة من الله أن يكتب لابنها « الخلاص » ، فرآها الأسقف وهى تذرف الدمع مدراراً ، فما كان منه سوى أن ابتدرها بقوله : « اذهبى إلى حال سبيلك — يا سيدتى — وليباركك الله ، فانه لمن المستحيل أن يهلك ابنُ هذه الدموع .. ! وهكذا كان فى تنبّؤ ذلك الأسقف إيذانٌ بما سوف يصير إليه أوغسطين من بعد ...

٤ — الكتاب الرابع

يروى لنا أوغسطين فى هذا الفصل تاريخ حياته ابتداء من سن التاسعة عشرة حتى سن الثامنة والعشرين. وهو يذكر لنا أنه قضى تسعة أعوام بأكملها ظل خلالها متمسكا بالنزعة المانوية ، لدرجة أنه كان يحاول استمالة الآخرين إلى هذا المذهب ، وإقناعهم بصحة مبادئه الفلسفية . وقد اعترف أوغسطين بأنه قد وجد فى علوم التنجيم — إبان تلك الفترة — دراسات مُشوقة ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها ، بعد أن تحقق من كذب كثير من تنبوءات المنجمين ! ومن الأحداث الهامة التى يسردها علينا أوغسطين فى هذا الفصل حادثة وفاة صديق له كان قد تعلق به منذ الطفولة فلما فقده أظلمت الدنيا فى عينيه ، واتشح كل ماحوله برداء الموت ! وقد وصف لنا أوغسطين حالته النفسية الأليمة بعد موت صديقه ، فكشف لنا بذلك عن صلة الحب بالموت ، وبين لنا كيف انهارت آماله جميعها بوفاة ذلك الصديق العزيز الذى كان منه بمثابة « نصفه الآخر » ! ثم ينتقل القديس أوغسطين إلى الحديث عن مؤلفاته الأولى إبان تلك الفترة المتقدمة من حياته ، فيقول لنا إنه ألف كتاباً عالج فيه مشكلة الجمال ، ألا وهو كتاب « الجميل والملائم » الذى لا يعرف هو نفسه فى أى ظروف اختفى تماماً من مكتبته . وأوغسطين يتساءل فى هذا الكتاب عن ماهية « الجميل » ، ولكى لا يلبث أن يُعرّفه بقوله « إنه الشئ السار الذى يروقنا بذاته » ، فى حين أن « الملائم » هو « ذلك الشئ الذى لا يروقنا إلا لتكيفه مع شئ آخر .. » . كذلك يروى لنا أوغسطين فى هذا الفصل أيضاً أنه قرأ كتاب أرسطو فى « المقولات العشر » ، ولكنه لم يفد كثيراً من قراءته ، لأنه ظن أنه يستطيع أن يطبق على الله نفسه بعض هذه المقولات ، وكأن الله جوهر مشروط بعظمه أوجماله ! وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى سائر الكتب الأخرى التى قرأها حول فن القول ، أو فن الحديث ، أو علم الأعداد ، أو علم الهندسة ، أو فن الموسيقى (أوما إلى ذلك من مؤلفات فى الفنون الحرة) فإنه لم يستطع أن يفيد منها الشئ الكثير ، خصوصاً فيما يتعلق بالتصوُّر الصحيح للجوهر الإلهى ..

٥ — الكتاب الخامس

أما فى هذا الفصل الجديد — الذى تدور معظم أحداثه فى السنة التاسعة والعشرين من عُمر القديس أوغسطين — فإننا نطالع بالتفصيل قصة انفصال أوغسطين عن المانويين ، خصوصاً بعد أن استمع إلى أحاديث زعيمهم فاوستوس Faustus الذى كان قد قدم إلى قرطاجنة للدفاع عن آراء المدرسة المانوية . وقد

أسهب أوغسطين فى الحديث عن تهافت « المانوية » من وجهة النظر العلمية الصرفة ، كما أعرب عن خيبة أمله لعجز كبير مفكرى المانوية عن الرد على أسئلته ! والواقع أن كل ما كان يمتاز به فاوستوس لم يكن يزيد عن ضرب من الفصاحة أو البراعة اللفظية ، فى حين أن أوغسطين كان ينتظر منه أن يفسر له تلك الأساطير المانوية العديدة عن السماء والكواكب والشمس والقمر .. الخ . وهكذا انكشف لأوغسطين — فيما يقول — جهل هؤلاء المانويين ، فلم يجد بُدًّا من اطراح عقيدتهم ، خصوصاً بعد سفره إلى روما حيث وقع تحت تأثير بعض النزعات الارتيابية التى كان ينادى بها بعضُ الأكاديميين المحدثين . وانتقل أوغسطين بعد ذلك إلى ميلانو ، فسمع هناك عن أسقف عظيم يُدعى القديس أمبروسيوس ، ودفعه حب الاستطلاع إلى التردد على الكنيسة للاستماع إلى عظات هذا الأسقف . وأوغسطين يعترف بأنه لم يهتم بالإنصات إلى أحاديث القديس أمبروسيوس إلا بسبب ما كان قد سمعه عنه من فصاحة وقوة بيان . ولكنه يقرر فى الوقت نفسه أنه لم يلبث أن شرع يتمعّن فى معانى أقاويله ، ويتأثر بمضمون أحاديثه ، خصوصاً وأن هذا القديس العظيم لم يكن يفسّر العهد القديم تفسيراً حرفياً ، وإنما كان يفسّره تفسيراً روحيًّا . وهكذا بدأ أوغسطين يفكر جدياً فى الانضمام إلى الكنيسة المسيحية ، وشرع يعدّ نفسه للدخول فى زمرة المؤمنين .

٦ — الكتاب السادس

يروى لنا القديس أوغسطين فى هذا الفصل كيف لحقت به أمه فى مدينة ميلانو ، وكيف كان سرورها عظيما حينما علمت أنه كان قد تخلى عن آرائه المانوية ، وأنه كان قد شرع يتأثر بعظات القديس أمبروسيوس وتعاليمه الروحية . وهو يذكر لنا أيضاً أن والدته كانت شديدة الإعجاب بهذا الأب الروحى الممتاز ، لدرجة أنها لم تتردد فى التخلى عن الكثير من عاداتها الدينية القديمة فى سبيل الخضوع لتعاليم أمبروسيوس . ولئن كان أوغسطين قد بقى بادئ ذى بدء متردداً أو خائفاً ، لا يكاد يقوى على مواجهة هذا القديس أو التحدث إليه على انفراد ، إلا أنه كان يواصل الاستماع إلى تعاليمه وعظاته العامة ، فاستطاع أن يدرك كيف أن قصة الخلق هى قصة رمزية لا تؤخذ بظاهرها ، لأن « الحرف يَقْتُل ، وأما الروح فتُحْيى » (على حد تعبير القديس بولس) . ويستطرد أوغسطين فيحدثنا عن أحلام السعادة التى كانت تراوده فى ذلك الحين ، ويصف لنا الآمال الكبرى التى كان يسعى نحو تحقيقها من وراء طموحه . ولكنه يروى لنا كيف استطاع أن يدرك عبث كل هذه الأحلام وبطلان كل تلك الآمال ، حينما فطن أخيراً إلى أنها كانت بعيدة كل البعد عن أن تكفل له « النجاة » ، أو أن تحقق له « الخلاص » . وكان لأوغسطين فى ذلك الوقت صديقان حميمان هما أليبيوس Alypius ونبريديوس Nébridius فكان يقضى معهما الساعات الطوال ، يتناقش معهما فى مسائل السعادة ، والخلاص ، وغاية المصير ، ومعنى الوجود البشرى ... الخ . وأوغسطين يهتم فى هذا الفصل بتحليل شخصية صديقه أليبوس ، فيحدثنا عن ولعه بالمسرح ، وحبّه لمشاهدة المصارعة ، كما يروى لنا قصة اتهام زائف كاد صديقه يقع ضحية لها ، لولا اكتشاف المجرم الحقيقى بطريق الصدفة البحتة . ولكن المهم أن أوغسطين قد وجد فى شخص أليبوس الصديق المخلص النزيه الذى كان يتمسك بالعدالة ، ولا يقبل فى عمله أى تراجع عما يعتقد أنه الحق ، لدرجة أنه رفض الكثير من فُرَص الإثراء فى سبيل احترام القانون . وأما نبريديوس ، فقد ترك منزله ووالديه وضيعته ، لكى يلحق بصديقه أوغسطين فى ميلانو ، وكان كل ما يقلق باله هو

الاشتراك مع صديقه فى طلب الحكمة والبحث عن الحقيقة . ولم يلبث الأصدقاء الثلاثة أن شرعوا يفكرون فى « السعادة » ، فكان أوغسطين أسرعهم إلى ربط السعادة بالحب ، لأنه كان يظن أن أحداً لا يستطيع الاستغناء عن معاشرة النساء . وكان أليبيوس ينصح صديقه أوغسطين بعدم الزواج ، ولكن أوغسطين استطاع أن يقنع صديقه بأهمية تجربة « الارتباط العائلى » ، فكان أن أقدم صديقه على الزواج لمجرد رغبته فى تجربة « المعاشرة الزوجية » ! ... وأما أوغسطين نفسه فقد كانت أمه تريد أن تبحث له عن زوجة مناسبة ، فاختارت له فتاة صغيرة كان عليه أن ينتظرها عامين كاملين ، وكأنما هى كانت تريد أن تصون عفته بالتفكير فى الزواج ! ولكن شهوة أوغسطين العارمة لم تكن لتقوى على الانتظار ، فلم يلبث أوغسطين أن اتخذ له عشيقة بادلها حبا بحب ، وبذلك استكانت نفسه لعبودية اللذة ، وصح ما قاله هو نفسه عن نفسه من أنه لم يكن فى تلك الآونة سوى مجرد تلميذ مخلص لأبيقور !

٧ — الكتاب السابع

يتناول القديس أوغسطين فى هذا الفصل شرح الشكوك الميتافيزيقية التى كانت لاتزال تراوده حول حقيقة الجوهر الإلهى وطبيعة الشر ، ومدى المسئولية البشرية ... الخ . وهو يروى لنا فى هذا الفصل كيف تخلى نهائيا عن نظرته المادية إلى الجوهر الإلهى ، وكيف شرع يفهم خيرية الله ، وصلة الشر بالحرية الإنسانية أو السقطة الأولى ... الخ . كذلك يسرد علينا أوغسطين بعض الخبرات الخاصة التى أدت به إلى رفض كل تنبوءات المنجمين وادعاءات القائلين بتأثير الأفلاك على مصير الإنسان ! ولكن المشكلة الكبرى التى ظلت تقض مضجع أوغسطين — طوال هذه الفترة — إنما كانت هى مشكلة « أصل الشر » ، فقد كان فكره مشغولاً بالتوفيق بين خيرية الله وقدرته المطلقة . ويستطرد أوغسطين فيحدثنا عن بعض كتب الأفلاطونيين المحدثين التى وقعت بين يديه ، ويقول لنا إنه وجد فى هذه الكتب الكثير من الحقائق الكبرى : لأنه قرأ فيها « أنه فى البدء كان « الكلمة » : Logos وأن الكلمة كان فى الله ، وأن الكلمة كان هو الله ، وأن كل شىء به قد كان ، وأنه بغيره لم يكن شىء مما كان ... » ولقد قرأ أوغسطين أيضاً فى هذه الكتب « أن الكلمة أو اللوغوس لم يولد من لحم أو دم أو مشيئة بشر ، بل من الله . وأما أن الكلمة قد صار جسداً ، وحل بيننا ، فهذا مالم يجده فى هذه الكتب مطلقاً . » . وأوغسطين يعترف بأنه قد وجد عند الأفلاطونيين المحدثين حقيقة شبيهة بما ورد فى إنجيل يوحنا عن أزلية « الكلمة » ، ولكنه لم يجد عندهم السبيل العملى إلى إدراك تلك الحقيقة أو السير على هديها فى حياته الأخلاقية . وهو — بلاشك — قد أخذ أيضاً عن الأفلاطونيين المحدثين قولهم بأن الشر عدم أو سلب محض . ولكنه لم يستطيع أن يقنع ببعض الفلسفات النظرية أو الآراء الميتافيزيقية عن الحقيقة الإلهية ، أو اللوغوس ، أو أصل الشر ، فإنه لم يكن ينشد المعرفة النظرية الصرفة ، بل كان ينشد أيضاً سبيلا عملياً يقتاده إلى « النجاة » . ومن هنا فإننا نراه يعترف صراحة بأن كل هذه المكاسب العقلية لم تستطع أن تشبع نهمه الروحى ، مادام الخير الأسمى الذى يمكن أن يكفل لنا السعادة إنما يتوقف أولا وأخيراً على توجيه الإرادة توجيهاً صحيحاً نحو المحبة الإلهية . وأوغسطين يلاحظ — فى هذا الصدد — أن كتب الفلاسفة لا تخلو من كبرياء عقلية أو صلف عقلى ، فى حين أننا نلمس فى كتابات رجل مثل القديس بولس تواضعاً روحيا لا نظير له عند غيره من كبار حكماء الإنسانية . وربما كان هذا هو السبب فى انصراف القديس أوغسطين إلى مطالعة رسائل القديس بولس بلهفة وشغف

زائدين ، خصوصاً وأن هذه الرسائل تفيض بالحديث عن ضعف الإنسان ، وعجز « الإنسان الروحى » الباطن فينا عن مقاومة « الإنسان الجسدى » الخاضع لشهوة أعضائنا الجسمية ... الخ. وأوغسطين يهتف مع القديس بولس (فى ختام هــذا الفصل) قائلاً : « ويحى أنا الإنســان الشقى ! من ينقذنى من جسدى هذا : جسد الموت : ؟ » . وهكذا نراه يعلّق خلاصه على اللطف الإلهى أو النعمة الإلهية ، واثقاً من أن إرادة الإنسان الضعيفة هيهات أن تكفى وحــدها لإنقاذه من براثن الخطيئة ...

٨ — الكتاب الثامن

يروى لنا أوغسطين فى هذا الفصل أهم الأحداث التى وقعت له فى العام الثانى والثلاثين من عمره ، فيبيّن لنا كيف أن اللطف الإلهى قد شاء له أن يسمع عن توبة الكثيرين ممن ظلوا أمداً طويلا سادرين فى غيّهم ، وكأن الله قد أراد أن يضع بين يدى « عَبْده أوغسطين » أمثلة صالحة يستطيع أن يقتدى بها . ولعل من هذا القبيل مثلا ما سمعه أوغسطين من الأب سمپليقيانوس Simplicianus عن توبة أحد مشاهير الخطباء الرومان، ألا وهو ڤكتوريانوس Victorianus الذى طالما علّم أبناء النبلاء الرومان تعاليم الوثنية الغاشمة ، ولكنه انتهى فى خاتمة المطاف إلى اعتناق المسيحية ، ولم يتردد فى إشهار تحوُّله الدينى على مرأى من سائر معارفه من أهل روما ! وقد كان لهذه القصة أثر كبير على نفسيّة أوغسطين ، فكان يتحرق شوقاً لتكريس حياته كلها لله ، ولكنه مع ذلك ظل موثقاً إلى عاداته السيئة القديمة ، فلم يكن ليقوى على تحرير إرادته من عبودية الخطيئة ! وأوغسطين يروى لنا أيضاً أنه سمع من أحد أصدقائه الافريقيّين الذين قدموا لزيارته فى ميلانو (وكان يُدْعَى پونطيقيانوس Ponticianus روايات كثيرة مؤثّرة عن قداسة الراهب المصرى القديس أنطونيوس ، فكان لهذه الروايات أثر بالغ على سلوك أوغسطين (وسلوك صديقه الحميم أليپيوس) . وهكذا تهيّأت نفس أوغسطين لقبول التوبة ، ولم يَبْقَ عليه سوى أن يخمد أصوات الشرّ فى قلبه ، لكى يقهر إرادته على الامتثال للنداء الإلهىّ . وقد أسهب أوغسطين فى وصف حالة الصراع النفسىّ التى كان يعانيها فى تلك الفترة ، فقدم لنا تحليلات رائعة لحالة « ضعف الإرادة » ، ووصف لنا ببراعة هائلة كيف أن الجسم يمتثل للنفس حينما تأمره ، وأما النفس فانها كثيراً ما تعصى أوامر إرادتها الخاصة ، وكأنمــا هى عاجزة عن إطاعة نفسها ! ... وأخيراً حانت لحظة التوبة ، فسمع أوغسطين صوت طفل يغنى قائلا : « خذ واقرأ » ، واعتبر هذا الصوت بمثابة نداء إلهى يدعوه إلى قراءة الكتاب المقدس ... ولم يلبث أوغسطين — كما سبق لنا أن بينّا عند الحديث عن حياته — أن فتح الكتاب المقدس على صفحات القديس بولس التى يدعو فيها المؤمنين إلى الانصراف عن حياة الشهوة والخلاعة وملذات الجسد ، من أجل العمل على الاستغراق فى حياة القداسة والبرّ والتقوى . وجرى أوغسطين — بصحبة صديقه أليپيوس — لكى يعلن النبأ على والدته الحزينة ، فكانت فرحة مونيكا باهتداء ابنها فرحة مزدوجة : لأنها شعرت بأن ولدها الضالّ قد عاد أخيراً إلى أحضان المحبة الإلهية ، كما أنها رأت حلمها يتحقق فأدركت أن الله قد قبل دموعها واستجاب صلاتها !

٩ — الكتاب التاسع

تدور أحداث هذا الفصل غداة توبة أوغسطين ، وكان قد بلغ من العمر حوالى ثلاث وثلاثين سنة ، فنرى أوغسطين يقلع نهائياً عن تعليم مهنة الخطابة ، متعلّلا ببعض الأسباب الصحية ، ثم نراه يعتكف قليلا

فى الريف لكى يستعد لتقبل نعمة « العماد » . ولم يلبث أوغسطين أن عاد إلى ميلانو ، لكى يتلقى طقس العماد على يد القديس أمبروسيوس ، وبذلك اكتملت توبته ، وصار عضواً فى الكنيسة المسيحية (هو وصديقه أليبيوس ، وابنه غير الشرعىّ أديوداتوس Adeodatus) وأوغسطين يروى لنا أحاديث روحية عميقة دارت بينه وبين أمّه مونيكا ، فيذكر لنا كيف تبادلا الحديث عن حياة الجسد وحياة الروح ، وحنين النفس البشرية إلى الاستغراق فى الله ، ولذة الانطلاق إلى السماء ، وعذوبة الحياة الأبدية بعد الموت . . . الخ . وهو يقول لنا إن أمه كانت تحس إحساساً غامضاً بقرب نهايتها ، فكانت تجد لذة كبرى فى أن تتحدث معه عن تلك الأمجاد السماوية المرتقبة « التى لم ترها عين ، ولم تسمع بها أذن ، ولم تخطر يوماً على قلب بشر » . ولم تكد تمضى خمسة أيام على هذه الأحاديث ، حتى فاجأ المرض والدة القديس ، فلازمت الفراش بضعة أيام فى شبه غيبوبة ، إلى أن وافتها المنية فى السادسة والخمسين من عمرها . وعلى الرغم من أن حزن أوغسطين على وفاة والدته قد فاق كل حد ، إلا أنه كان يشعر بأن وفاة هذه السيدة البارة لم يكن سوى مجرد انتقال مؤقت . وقد خفف من وقع الصدمة على نفس أوغسطين أن هذه الوفاة لم تحدث إلا بعد أن اطمأنت نفس مونيكا على خلاص ابنها . وهكذا رقدت تلك القديسة الطاهرة مطمئنة مستريحة البال ، وحق لأوغسطين أن يطلب لنفسها الرحمة ، مبتهلا إلى الله أن يُسكنها جنات الخُلد .

١٠ — الكتاب العاشر

أمّا وقد فرغ أوغسطين — فى الفصول السابقة — من الحديث عن حياته قبل العماد ، فإننا سنراه فى هذا الفصل يحدثنا عن معرفته لله ، ومحبته له ، ورغبته فى أن يشاركه الآخرون هذا الحب وتلك المعرفة . وأوغسطين يقرر هنا أنه لكى يعرف الإنسان نفسه ، فلا بد له من علم إلهىٍّ يكشف له عن أغوار قلبه . ومن هنا فإن أوغسطين يمضى فى البحث عن الله ، لكى يبين لنا أن الله لا يختلط بالطبيعة ، وأنه لا سبيل لنا إلى معرفته اللهم إلا إذا تجاوزنا الحياة العضوية وعلونا على الطبيعة المحسوسة . ثم يتساءل أوغسطين عن الملكة التى نستطيع عن طريقها أن نعرف الله ، فنراه يتوقف طويلا عند ملكة « الذاكرة » التى وجد فيها خير معبر عن الثراء الباطن فى صميم حياتنا الشعوريّة . وليس فى وسعنا — بطبيعة الحال — أن نسهب فى شرح أنواع الذاكرة التى يتحدث عنها أوغسطين (من حسية ، وعقلية ، وعاطفية وغير ذلك) ، وإنما حسبنا أن نقول إن أوغسطين هنا يقدم لنا تحليلات سيكولوجية ممتازة فى موضوع « الذاكرة والنسيان » ممَّا قد لا نجد له نظيراً من بعد اللهم إلا عند برجسون . والسر فى اهتمام أوغسطين بالذاكرة انه يريد يبيّن لنا أنّنا ما كنا لِنَبْحَثَ عن الله ، لو لم نكن قد وجدناه من قبل ! فالله موجود فى باطن ذاكرتنا ، وهو موجود على صورة فكرة رئيسية هامة من أفكار الإنسان ، ألا وهى « فكرة السعادة » ، أو « النزوع نحو السعادة » . والواقع أننا جميعاً نتمنى السعادة ، ونعمل جاهدين فى سبيل الوصول إليها . ولكنْ هيهات لنا أن نظفر «بالسعادة» اللهم إلا فى الله ، فما السعادة إلا تلك الغبطة التى نستشعرها فى نفوسنا حين نصل إلى « الحق » ، وما « الحق » إلا الله نفسه ! وإذن فان القديس أوغسطين حينما يقرر أن الله كامن فى « الذاكرة » إنما يعنى أن الله هو ذلك « الحق » أو تلك « الحقيقة » التى هيهات للفكر المُسْتَبْصر أن ينساها أو يتناساها . ولكنْ لا موضع للتساؤل عن ذلك الجزء المعيَّن الذى يشغله الله فى داخل الذاكرة ، فان مثل هذا التساؤل قد يوحى بأن فى الذاكرة أجزاء مستقلة منفصلة بعضها عن البعض الآخر ! ومهما وقع فى ظن الانسان أن هناك مسافة

تفصله عن الله ، فان الحقيقة الإلهية لا بد من أن تظل حقيقة كلية شاملة تطوى فى ثناياها كل شيء . وإن الله ليجيب على كل استفهام يتصاعد إليه من قلب البشر ، ولكن الذين يستمعون إلى الجواب الإلهى قلة نادرة ! وما أتعس بنى البشر : فانهم أحرص على أن يسمعوا من الله ما يريدون ، منهم على أن يريدوا ما يسمعون منه ! وهذا هو السبب فى أنهم قلّما يعرفون كيف يستمعون إلى الصوت الإلهى ، أو كيف يفهمون المقاصد الإلهية السامية . ثم يستطرد القديس أوغسطين فيصف لنا حالته النفسية فى الفترة التى كان يسجل فيها اعترافاته ، ويقرر أن الحياة — فى رأيه — لا تخرج عن كونها سلسلة مستمرة من التجارب أو البلايا ، وأنه لولا عناية الله ولطفه بنا طلك كل من على وجه الأرض ! ويمضى أوغسطين فى وصف الشهوات المختلفة التى طالما وقع البشر ضحية لها ، فيحدثنا عن شهوة الجسد ، وشهوة الطعام والشراب ، وشهوة الشم ، وشهوة السمع وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة ..الخ ومن طريف مايرد على لسان أوغسطين — فى هذا الصدد — إرجاعه جميع الشهوات إلى « شهوة العين» نظراً لما للبصر من أهمية بالغة فى حياة الانسان . ويختم أوغسطين هذا الفصل بالحديث عن تفاهة « الاكتفاء الذاتى » ، وبطلان كل « رضاء عن النفس » ، لكى يؤكد ضرورة التمسك بيسوع المسيح : « الوسيط الحقيقى بيننا وبين الله » .

١١ — الكتاب الحادى عشر

يُعد هذا الفصل من أهم فصول « الاعترافات » : فان المؤلف يتعرض فيه لدراسة مشكلة الزمان، وخلق العالم ، وعلاقة الزمان بالنفس الانسانية . . الخ وأوغسطين يبدأ بعبارة التوراة التى تقول انه « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ، فيقول إن التوراة تجعل للمخلوقات « بداية » . ولما كان الزمان فى جوهره تغيراً وصيرورة ، فان الزمان نفسه لابد أيضاً من أن يكون مخلوقاً . ومعنى هذا أن الزمان لا يمكن أن يكون أزليا مادام مثله كمثل باقى المخلوقات الأخرى من حيث كونه مبتدئاً . وأما إذا ساءلنا المانويّون قائلين : « ماذا كان الله يفعل قبل خلقه للسموات والأرض ؟ » فاننا لن نستطيع أن نجيبهم بقولنا : « إنه لم يكن يصنع شيئاً » ، فان هذا سيستتبعه بالضرورة أن نتساءل عن السبب الذى من أجله لم يستمر الله على تلك الحالة فى الزمان التالى : إذ لو افترضنا أن مرجحاً قد استجد عليه ، لتعين ألا يكون الله أزليا . ولكن الواقع أن إرادة الله قديمة كائنة قبل كل حدوث : إذ لو ظهر فى الجوهر الإلهى شئ لم يكن فيه لوجب أن نسلب عنه صفة الأزلية وإذن فان إرادة الله قديمة ، ومفعولها هو المتعلق بالزمان وليس بالنسبة إلى الله « قبل » و « بعد » ، نظراً لأن الله هو الذى يحدد الماضى والمستقبل ، دون أن يخرج هو نفسه عن ثبات أزليته وأوغسطين يقرر أن الله قد خلق كل شئ ، وأنه لاموضع للحديث عما كان يفعله الله « قبل » الخلق لأنه ليس ثمة « شئ » قبل الخليقة . ولو جاز أن يكون الله قد صنع « شيئاً» قبل قيامه بعملية الخلق ، لكان هذا الشىء حادثاً مخلوقاً — كغيره من الأشياء الأخرى — ولكانت هناك « خليقة » قبل الخلق ! ولا موضع للتعجب من أن يكون الله قد ظل « عاطلا » من كل عمل خلال أزمنة عديدة سبقت حادثة الخلق ، لأنه لا يجوز الحديث عن أزمنة انقضت ، قبل أن يكون الله قد خلق الزمان وأوجد الأجيال ! وبعبارة أخرى ، لاموضع للحديث عن «زمان » قبل أن يكون الله قد خلق الزمان ! وهكذا نرى أن أوغسطين يقرر أن الله لم يخلق العالم فحسب بل هو قد خلق الزمان أيضاً . ولو قلنا بأنه ليس ثمة « زمان » قبل الخلق ، فلن يكون ثمة موضع للتساؤل عما كان الله يفعله « حينئذ » لأنه حيث لازمان ، فلا مجال للتحدث عن أى « حين » !

ثم يمضي أوغسطين في حديثه عن « الزمان » فيحاول أن يبين لنا أن « الماضي » زمان قد انقضى فلم يعد له وجود ، و« المستقبل » زمان لم يحن بعد فلا وجود له الآن ، و « الحاضر » نقطة تلاقي الماضي والمستقبل فهو زمان لا وجود له ! ولكننا مع ذلك نقيس الزمان ونصفه بالطول أو القصر ، فما هو هذا الذي نقيسه ؟ ... الواقع أننا نجد في النفس مقياس الزمان : لأن ما نقيسه بالنسبة إلى الماضي إنما هو « حاضر هذا الماضي » في النفس ، وما نقيسه بالنسبة إلى المستقبل إنما هو « حاضر هذا المستقبل » في النفس ، وما نقيسه بالنسبة إلى الحاضر إنما هو « حاضر هذا الحاضر » في النفس . و«الماضي» حاضر في النفس على صورة «ذاكرة» ، في حين أن «المستقبل» حاضر فيها على صورة «توقع» ، و«الحاضر» حاضر فيها على صورة « انتباه » أو « عيان مباشر » . وهكذا نرى أن أوغسطين يجعل وجود الزمان واستمراره من عمل النفس التي تتذكر وتسترجع ، أو تنتظر وتتوقع ، أو تنتبه وتستجمع .

١٢ — الكتاب الثاني عشر

يواصل أوغسطين في هذا الفصل الحديث عن مشكلة الخلق ، فنراه يتوقف طويلا عند الفصول الأولى من سفر التكوين لكي يفسرها تفسيراً رمزيـاً ... حقاً لقد ورد في سفر التكوين أن الله قد خلق السماء والأرض في ستة أيام متوالية ، ولكننا لن نستطيع أن نأخذ هذه النصوص على ظاهرها ، وكأننا بصدد «أيام» حقيقية قد جاءت متعاقبة ، أو كأن الفعل الإلهي قد اقتضى زماناً معيناً ، بل ينبغي أن نقرر أن عملية « الخلق » قد تمت في لحظة واحدة ، دون أن يقتضي ذلك أي تعاقب زمني . وما جاءت رواية التوراة على هذا النحو إلا لكي تناسب ضعف عقولنا وقصور تخيلنا ، بدليل قول الكتاب : « إن الله قد استراح في اليوم السابع » (أي كف عن الخلق) ، وهو تعبير لا يلائم إلا الصانع البشري الذي يتعب بعد قيامه بعمل شاق أو جهد مضن ! وليس مثل الله كمثل الصانع البشري الذي يستعين بجسم ما في صناعة جسم آخر ، وإنما الله هو خالق كل شيء ، حتى تلك المادة التي استعملها في خلقه للسماء والأرض . « وإلا ، فأنى لشيء لم تخلقه أنت أن يوجد ، ما دام شيء لا يمكن أن يوجد إلا إذا كنت أنت نفسك موجوداً ؟ ولكنك قلت : لتكن الأشياء ! فكانت الأشياء ، وبكلمتك أنت خلقتها ... » . وأوغسطين يسهب في شرح فكرة « الخلق من العدم » ، لكي يبين لنا أن المادة التي تحدث عنها سفر التكوين هي نفسها من خلق الله . وهو يفسر كلمة « الأرض » بأنها المادة العارية من الصورة تماماً ، بينما نراه يفسر « السماء » بأنها مادة روحية مكتملة الصورة (وهي المادة التي صنعت منها الملائكة) ! ولكن الله لم يخلق المادة أولا ، ثم عاد فأكسبها صوراً متعددة من بعد ، بل ينبغي أن نقرر أن خلق المادة لم يسبق خلق الصور في ترتيب الزمان ، بل في ترتيب العلية فقط . ومعنى هذا أن الله قد خلق المادة والصور في وقت واحد ، أو هو قد خلق المادة مشبعة بطائفة من الصور . وأوغسطين ينسب إلى « المادة » أدنى ضرب من ضروب الحياة ، فيقول إنها أبعد الموجودات عن الجوهر الإلهي . حقاً إن المادة « شيء » ، ولكنها أقرب الأشياء إلى « العدم » أو « اللاوجود » . وأما كلمة « البدء » التي وردت في سفر التكوين فهي لا تعني بداية الزمان ، بل مبدأ جميع الأشياء ، ألا وهو اللوغوس أو « الكلمة » ... وليس في وسعنا — بطبيعة الحال — أن نأتي في هذه العجالة القصيرة على كل آراء أوغسطين في تفسير عبارات التوراة ، وإنما حسبنا أن نقول إن أوغسطين يعترف هنا بإمكان تأويل عبارات موسى الواردة في سفر التكوين على أنحاء متعددة ، ولكنه يقرر أن من المستحيل أخذ تلك العبارات بحرفيتها ، وكأن الله هو

مجرد صانع بشرى يستخدم ما بين يديه من موادّ فى صناعة جسمين كبيرين : أحدهما جسم علوى هو السماء ، والآخر جسم سفلىّ هو الأرض ! ...

١٣ — الكتاب الثالث عشر

يظهر فى هذا الفصل تأثر أوغسطين بفلسفة أفلاطون فاننا نراه يقرر معه أنّه « لما كان الله خيراً وبريئاً من كل حسَد ، فقد أراد أن تكون جميع الأشياء شبيهة به على قدر الامكان » . وأوغسطين يحمل ما ورد فى سفر التكوين على هذا المعنى فيقول « إن الله قد نظر إلى كل ماخلقه ، فرأى أن ذلك حسن . والله قد خلق الأشياء كلها بكلمته ، وهو لم يخلقها إلا لأنها حسنة » . ومادام الشر سلباً أو عدماً محضاً ، فان كل مافى الوجود مظهر من مظاهر خيرية لله ، دون أن يكون ثمة موضع للقول بوجود نقص أو تصدُّع أو انحلال فى أى عمل من أعمال الخلق الإلهى . وأوغسطين يتوقف عند الآيات الأولى من سفر التكوين لكىّ يُثبت لنا أنها تنطوى على فكرة « التثليث » إذ ترد فيها كلمة «الله» وكلمة « البدء » ، وكلمة « الروح » وهو يحاول أن يقرب هذه الفكرة إلى أذهان قرائه فيحدثهم عن « وحدة » النفس البشرية التى تقوم على « الوجود » و « المعرفة » و » الإرادة » .. « إننى أوجد، وأعرف وأريد ، أو أنا موجود من شأنه أنه يعرف ويريد . وأنا أعرف أننى أوجد وأريد . وأنا أريد أن أوجد وأعرف .. وهذه المظاهر الثلاثة تكوّن حياةً واحدةً غير منقسمة ، إذ نحن هنا بصدد وجود واحد ،وعقل واحد ، وماهية واحدة ، أو نحن بصدد تمايز لاينطوى مع ذلك على أى انفصال » (ك ١٣ : ف ١١) . ثم يعرج أوغسطين على قصة الخلق فيفسرها تفسيراً صوفيا رمزيًّا ، وكأنما هى تنطوى على مجموعة من «المعادلات التشبيهية » التى لا بد من فك رموزها . فالفلك (مثلاً) هو الكتاب المقدس ، والمياه الموجودة فوق سطح الفَلَك هى الملائكة ، والمياه المُرة هى العالم ، والأرض اليابسة هى الخير ، والزواحف ذات النفوس الحية هى الأسرار المقدسة ، والطيور التى تطير على سطح الأرض هى رسل الكلمة الإلهية ، والنفس الحية التى تولّدها الأرض هى النفس المسيحية الحقة ...الخ . وأوغسطين يشرح لنا بالتفصيل كيف يتسنى لنا أن نرقى من هذه « الأمارات الحسية » أو « الرموز المادية » إلى دلالاتها المعنوية أو معانيها الروحية . وهو يدافع عن طريقته الخاصة فى فض هذه الشفرات أو الرموز فيقول إن الكثير منها قد يبدو غامضاً أو متناقضاً لو فُهِم على وجهه الظاهرى . وقد يكون من الطريف أن يرجع القارئ إلى هذا الفصل الأخير من فصول « الاعترافات » ، لكى يتعقب هذا التفسير الرمزى لقصة الخلق على نحو ما تصورها أوغسطين . ولكن المهم فى نظرنا هو ما نجده لدى أوغسطين من رد فعل روحى واضح ضد شتّى النزعات المانوية المادية فى تفسير عملية الخلق . فالمانويون مثلا لم يكونوا ينسبون إلى الله خلق سائر الموجودات ، كما أنهم كانوا يقولون بوجود نقص أو « شر » فى الخليقة ، فضلاً عن أنهم كانوا ينكرون مبدأ « الانسجام الكلى » . وأما عند أوغسطين فان الخليقة (فى جزئياتها ومجموعها) حسنة خصوصاً وقد ورد فى التوراة أن الله قد استحسن ماصنعت يداه سبع مرات . ولكن هذا الاستحسان لم يتم فى الزمان (كما قد يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة) وإنما تكلم الله بصيغة الزمان ، حتى نفهم مقصده الإلهى وفقاً لطبيعتنا الزمانية القاصرة . وهذا هو السبب فى قول الكتاب عن الله « انه استراح فى اليوم السابع » ، فى حين أن الله هو الفاعلية الأزلية الأبدية التى لاتعرف التعب أو الاعياء ! ولكن الله أيضاً هو الراحة الأزلية والثبات المطلق ، فلابد للنفس البشرية القلقة المعذبة من أن تحقق وجودها على الأرض لكى ترتاح أخيراً

فى الله !.. وهكذا نجد أن الكلمة النهائية فى اعترافات القديس أوغسطين إنما هى للراحة الأبدية فى أحضان الله

٥ — الأثر الخالد لكتاب « الاعترافات » فى تراث الإنسانية

إذا كان النُقّاد الأدبيُّون قد أجمعوا على اعتبار « اعترافات » القديس أوغسطين تحفة نادرة فى تاريخ « التراجم الذاتية » فما ذلك لما تضمنته من تحليلات سيكولوجية دقيقة فحسب ، وإنما لأنها قد انطوت أيضاً على « عمل فنى » متكامل تفضى بدايته إلى نهايته بطريقة فنية متوافقة . وقد سبق لنا أن لاحظنا ما اتسمت به اعترافات أوغسطين من صراحة ، وإخلاص ، ونزاهة ، ودقة تحليل . ولكننا لو قارنا هذه الاعترافات (مثلاً) باعترافات چان چاك روسّو ، لوجدنا أن أوغسطين لم يبلغ فى اعترافاته حدّ الوقاحة الفجة كما فعل الكاتب الفرنسىّ الذى لم يجد أدنى حرج فى أن يروى على قارئه أفضح المسائل الجنسية ! حقاً إن أوغسطين لم يُخْفِ عن الناس الكثير من مخازيه الأخلاقية ومثالبه الشخصية ، ولكنه مع ذلك قد عرض كل هذه الفضائح بأسلوب التائب النادم الذى يتحسَّر على عُمْق الهاوية التى انحدر إليها ! وإذا كنا نجد فى كثير من « التراجم الذاتية » دفاعاً عن النفس ، وافتياتاً على الآخرين ، فإننا لا نكاد نلمح لدى القديس أوغسطين أىّ تجنّ على أية شخصية من الشخصيات التى ورد ذكرها فى اعترافاته . وآية ذلك أن أوغسطين قد حدثنا عن والديه ، وبعض أصدقائه من أمثال أليپيُوس ونبريديوس ، كما حدثنا أيضاً عن الأسقف المانوى فاوستوس والقديس أمبروسيوس أسقف ميلانو ، ولكنه فى كل هذه الأحاديث إنما كان يحلّل الشخصيات التى يتعرّض لدراستها بأمانة ونزاهة ودقة ملاحظة ، دون أن يتحامل عليها أو يسخر منها أو يدافع عن نفسه على حسابها ! ولم يقتصر أوغسطين فى اعترافاته على سرد بعض الأحداث الخارجية أو الوقائع التاريخية — كما فعل بعض أصحاب التراجم الذاتية — وإنما هو قد حلّل لنا أدقّ حالاته النفسية وأعمق أزماته الروحية ، فكانت اعترافاتُه بذلك بمثابة تعبير حىّ عن « أوديسّة » النفس القلقة المعذبة فى بحثها عن « الخلاص » أو « النجاة » . وإذا كان الكثيرون من أصحاب « التراجم الذاتية » — من أمثال رينان وكيركجارد وغيرهما — قد حاولوا السير على نهج أوغسطين ، فما ذلك إلا لأنهم قد وجدوا فى اعترافاته سيمفونية روحية تعبّر عن مَدّ النفس وجَزْرها ، فى هُداها وضلالها . والحق أن أوغسطين لم يكن مجرد أديب يسرد علينا أحداث حياته بلغة عاطفية حماسية عامرة بالقوة والبيان ، وإنما كان أيضاً فناناً صادقاً مرهف الحسّ لا يفوته أى ظل من ظلال الواقع ، ولا تغيب عنه أية خبيئة من خبايا النفس . وهذا هو السبب فى أن اعترافاته قد لاقت منذ البداية نجاحاً منقطع النظير ، بدليل ما رواهُ لنا بعض المؤرّخين من أن الكثيرين كانوا يبحثون عنها باهتمام بالغ ، حتى فى حياة صاحبها نفسه . ولئن كان البعض قد عاب على أوغسطين كثرة التجائه إلى التحسينات اللفظية ، والأساليب الخطابية ، والتشبيهات المجازية ، إلا أن من المؤكد أن هذا الطابع الأدبىّ الذى اتسمت به اعترافات أوغسطين لا ينقلها عن نطاق « الحقيقة » إلى نطاق « الشعر » ، بل هو يجعل منها «ملحمة روحيّة» يمتزج فيها الإيمانُ الحارّ بالتعبير الدافىء ، ويتعانق فيها الحسّ المرهف مع الفكر النفّاذ . وإذا كان الشاعر الألمانى الكبير جيته قد أطلق على ترجمته الذاتية اسم « الشعر والحقيقة » ، فربما كان فى وسعنا أن نطلق على اعترافات القديس أوغسطين اسم « شعر الحقيقة » ! ولكننا هنا بإزاء « شعرٍ » يَدِقّ حتى ليكاد يستحيل

إلى « فلسفة » ، وحقيقةٍ تتسامى حتى لتكاد تستحيل إلى « إشراق صوفى » ! .

٦ — مختارات من « الاعترافات »

ا — يتحدث أوغسطين عن جريمة السرقة التى اقترفها فى سنّ السادسة عشرة ، بصحبة بعض رفاق السوء فيقول : « ولكنّ ، وا أسفاه ! ما الذى حبّبك إلى نفسى أيتها السرقة ، جريمتى الليلية الخبيثة فى العام السادس عشر من عمرى ؟ إنك لم تكونى جميلة إذ معاذ الله أن تكون السرقة جميلة ! أستغفر الله ! فما أنت بشىء حقيقى ، حتى أوجه إليك الحديث على هذا النحو ! حقا لقد كانت تلك الفاكهة التى سرقناها فاكهة جميلة ، ما دُمت أنت ياإلهى الذى خلقتها ، وأنت الجمال الذى لا نظير له ، خالق كل شىء ، الإله الصالح ، الخير الأسمى وخيرى الحقيقى . . . أجل ، لقد كانت تلك الثمار جميلةً بحق ، ولكننى أؤكد لك أن قلبى المسكين لم يكن يشتهيها فى كثير أو قليل ، فقد كان عندنا ماهو خير منها ألف مرة وإذن فأنا ماقطفتُ تلك الثمار إلّا لمجرد السرقة ، بدليل أننى ماكدتُ أقطفها حتى بادرتُ إلى رميها ! فماتذوقته منها إنما هو طعم الخطيئة وحدها ، وقد وجدتُ لذة كبرى فى التمتع بذلك المذاق . وإذاكانت قطعة صغيرة من تلك الفاكهة قد عرفت طريقها إلى فمى ، فما كان لها أى مذاق عندى اللهم إلّا مذاق خطيئتى !

والآن ، ياربّ وإلهى ، إننى لأتساءل عما أغوانى باقتراف هذه السرقة ... إنها لم تكن تنطوى — بلاشك — على أى ضرب من ضروب الجمال ... فما الذى حبّب إلى نفسى مثل هذا الفعل الشائن ؟ أترانى قد أردتُ أن أحاكى الحرية الإلهية ، ولكنْ بطريقة إجرامية معكوسة ؟ أترانى قد وجدتُ لذة كبرى فى أن أخرج على القانون عن طريق الاحتيال ، لأننى لم أكُنْ لأستطيع مخالفته بالقوة ؟ أجل ، لقد كنتُ مستعبداً ذليلاً ، فأردتُ أن أتظاهر بالحرية ، ومن ثمّ فقد أقدمتُ على اقتراف المحظور ، دون خشية أو حياء ، وكأنى كنتُ أريد أن أحاكى القدرة الإلهية المطلقة ، فجاءت محاكاتى مهزلة سخيفة غاشمة ! ... » (ك ٢ : ف ١٢ ، ١٤) .

ب — كان لأوغسطين صديق عزيز عليه اختطفه الموتُ فى صباه ، فكتب أوغسطين يصف لنا حالته النفسية عقب تلك الوفاة : « ... لقد اظلم قلبى لفرط ما ألمّ به من أسى ، كما اتشح برداء الموت كل ماكنت أنظر إليه من حولى . وهكذا صار وطنى مقرًّا موحشاً لا أستطيع البقاء به ، وأصبح بيت أبى مكاناً مفزعاً لا أملك المكوث فيه ، وأضحى كل ما كان مشاعاً مشتركاً بيننا مثار عذاب أليم لنفسى فى وحدتها القاسية ... لقد كانت عيناى تبحثان عنه فى كل مكان ، ولكنّ شيئا لم يكن ليستطيع أن يهدينى إلى طريقه ، فأصبحت أبغض سائر الأشياء ، لأنها لم تعد تستطيع أن ترشدنى إليه ، ولأن شيئا منها لم يعد يستطيع أن يقول لى : « تمَهّل قليلا ، فإنه سوف يعود إليك » ، كما كان يحدث إبان محياه حينما كان يغيب عنى إلى حين . وهكذا أصبحتُ مشكلة كبرى بالنسبة إلى نفسى : أسائل نفسى لِمَ هى حزينة كل هذا الحزن ، ولماذا تقض مضجعى على هذا النحو المزعج ، فلا تكاد تحير جواباً ، لأنها هى نفسها لاتدرى من أمرها شيئا ! وحينما كنتُ أقول لها — بحق — : « ألا فلتضعى رجاءك فى الله » ، لم تكن لتستطيع الإنصات إلىّ أو الاستجابة لى : لأن ذلك الصديق العزيز الذى اختطفه الموت من بين أحضانها كان أحق عندها وأفضل من كل تلك الخيالات التى كان يُطلب إليها أن تضع رجاءها فيها ... وأما الدموع فقد كانت هى عزائى الوحيد فى مصابى ، لأن قلبى المعذب بفقد صديقه أصبح يستعذبها إلى حد التلذذ بصحبتها ، وكأنما هى صديقى الراحل نفسه » !

ويمضي القديس أوغسطين فى وصف ألمه لفقد صديقه فيقول : « لقد أصبحتُ أعجب كيف ظل الباقون من البشر الفانين على قيد الحياة ، بينما هو قد طواه الموت ، وهو الذى آثرته بحبي ، وكأن قد كُتِب له الخلود من دون البشر أجمعين ! وزادت دهشتى حين وجدتنى أنا أيضاً أعيش بعد موته ، وأنا الذى كنت منه بمثابة نفسه الأخرى ! وما أصدق البعض حين يقول : إن صديقى هو النصف الآخر منى ، فاننى كنتُ أشعر حقا بأن نفسى ونفس صديقى لم تكونا إلا نفساً واحدة فى جسدين ! وهكذا أصبحتْ الحياةُ بالنسبة إلىَّ عبئاً ثقيلا لا يطاق ، لأننى لم أكن أريد أن أعيش بشطر واحد فقط من وجودى .... » (ك٤: ف ٤، ٦، ٧) .

حـ — يصف لنا أوغسطين الجوهر الإلهى وكيف أنه متمايز بالضرورة عن الطبيعة فيقول : « سألتُ الأرض فأجابت : « لست أنا إلهك » ، وهكذا أيضاً أجابنى كل ماعلى سطحها . سألتُ البحر وأعماقه وما فيه من زواحف وأحياء ، فأجابتنى كلها : « لسنا نحن الإله الذى تنشده ، بل ابحث فيما فوقنا » . سألتُ النسيم العليل ، والعاصفة العاتية ، والهواء بما فيه من سُكان ؛ فأجابتنى جميعاً : « لقد أخطأ انكسيمانس فما نحن بإلهك » . سألتُ السماء ، والشمس والقمر والنجوم ، فأجابتنى كلها : « ونحن أيضاً لسنا بالإله الذى تبحث عنه » . وعندئذ توجَّهتُ إلى جميع الكائنات التى تحيط بمنافذ حواسى الجسدية وقلتُ لها : « إذا كنتِ أنت لستِ الإله الذى أبحث عنه ، إذن فخبرينى أين هو ، أو حدثينى على الأقل عنه » فصاحت كلها بصوت واحد قوى : « إنه هو الذى صنعنا » ! (ك١٠: ف٩) .

د — وهذه فقرة أخرى من الفقرات المشهورة الواردة فى الاعترافات ، وأوغسطين يتحدث فيها عن حالته الروحية فى الفترة التى كان يحرر فيها ترجمته الذاتية فنراه يقول : « بعد لأى ماأحببتك يا الهى ! ماذا أقول ؟ أستغفر الله ! بل لقد كنت أنت باطناً فى أعماق نفسى ؛ بينما كنتُ أنا خارجاً عن ذاتى ! وهناك فى الخارج — كنتُ أبحث عنك ، فكنت أتمرَّغ — بصورتى الدميمة الشائهة — فوق مخلوقاتك الجميلة ! لقد كنت أنت معى ، وأما أنا فإننى لم أكن معك . لأننى كنتُ منصرفاً عنك تحت تأثير أشياء ماكانت لتوجد لو لم تكن قد وُجِدتْ فيك ! ولكنك ناديتنى فصك صوتُك سمعى الثقيل ، وسطعت أمامى ، فبدد نورُك ظلمات بصرى الكفيف ، ونشرت عبيرك مسكاً فواحاً ، فتنسمتُه وفتحتُ رئتى ، وهأنذا الآن أتنهد من أجلك ، بعد أن تذوقتك فاشتهيتُ مذاقك ، واستمرأتك فزاد عطشى إليك . والآن وقد مستنى نعمتك ، فاننى أتحرق شوقاً للتنعم بذلك السلم العميق الذى تمنحه لنا » (ك١٠: ف ٣٨) .

هـ — يهتم القديس أوغسطين فى الكتاب الحادى عشر من اعترافاته بمشكلة الزمان ، فنراه يبسط الحديث فى أقسام الزمان ، وعلاقتها بالنفس ومدى إمكان قياسها ... الخ . وفيما يلى بعض العبارات القليلة التى وردت فى خاتمة هذا الحديث المسهب عن الزمان : « ... إن ما يبدو لى الآن واضحاً بيناً هو أنه لا المستقبل ولا الماضى بموجودين . وتبعاً لذلك فإنه لا يحق لنا أن نقول إن هناك ثلاثة أزمنة ؛ ألا وهى الماضى والحاضر والمستقبل ؛ بل ربما كان الأصح أن نقول إن هناك ثلاثة أزمنة ، ألا وهى حاضر الماضى ، وحاضر الحاضر ، وحاضر المستقبل . وهذه الأنحاء الثلاثة من الزمان إنما توجد فى ذهننا وحده ، لا فى أى موضع آخر . وحاضر الأشياء الماضية إنما هو الذاكرة ، وحاضر الأشياء الحاضرة إنما هو العيان المباشر ، فى حين أن حاضر الأشياء المستقبلة إنما هو الانتظار أو التوقع . ولو جازَ لى استعمال هذه

التعبيرات ، لَسلَّمْتُ بأن هناك ثلاثة أزمنة . أجل فإن هناك — بهذا المعنى — أزمنة ثلاثة بالفعل .

وأما إذا استمر الناس على القول بأن هناك أزمنة ثلاثة ، ألا وهى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فأنا لَنْ أرى مانعاً من ذلك ، ما دام هذا الاستعمال الخاطىء قد جرى مجرى العادة . ولما كانت المسألة قليلة الجدوى ، فإننى لن أكترث بمعارضتها أو نقدها ، ولكنْ على شرط أن يفهم المرء ما يقوله ، فلا يقع فى ظنه مثلا أن المستقبل موجود من ذى قبل ، أو أن الماضى ما زال موجوداً بعد . وإنه لمن النادر أن يتكلم الناس كلاماً دقيقاً صحيحاً ، فإن التعبيرات التى درجنا على استعمالها هى دائماً أبداً خالية من كل دقة أوضبط . ولكننى أحسب أن القارىء لا بد من أن يكون قد أدرك ما أردتُ أن أقوله . (ك ١١ : ف ٢٦) .

ثم يعرّج أوغسطين على مشكلة قياس الزمان ، فيحاول أن يثبت لنا أننا نجد فى النفس مقياس الزمان. وهو يقول فى ذلك : « أيّها الذهن : إننى لا أقيس الزمان إلا فيك ... فان الانطباعات التى تتركها فيك الأشياء المنقضية تظل باقية بعد انتهائها ، وأنا أقيس هذه الانطباعات أثناء حضورها ، لا الأشياء التى أحدثتها وأصبحت فى حكم الماضى . وإذن فإننى حينما أقيس الزمان إنما أقيس هذه الانطباعات الحاضرة ... وحينما نقيس فترة صمت أو سكون ، فنقول عنها إنها استغرقت من الزمن قدر ما استغرقه هذا الصوت ، ألسنا نتصور — فى هذه الحالة — عن طريق الانتباه ، أن هذا الصوت ما زال يرنّ ، فنحاول أن نقيس الزمان الذى استغرقه رنينه ، حتى نتمكن عن هذا السبيل من أن نحدّد لحظات السكون والمدة التى استغرقتها فى الزمان ؟ إن المرء قد يتلو بفكره — دون أن يحدث صوتاً مسموعاً بلسانه وشفتيه — قصيدةً أو أبياتاً من الشعر أو خطبة أو حديثاً ، فيدرك مع ذلك النسب الموجودة بين أجزاء القصيدة أو الخطبة ، ويقدّر العلاقة المتبادلة القائمة بين مددها الزمنية ، وكأنما هو يتلوها بصوت مسموع سواء بسواء . وحينما يريد المرء أن يحدث صوتاً محدّد الطول ، فإنه قد يعمد إلى تحديد طوله فى ذهنه أولا ، بأن يتأمّل فى سكون تلك المدة التى يمكن أن يستغرقها ، مستعيناً فى ذلك بذاكرته التى تعى حساب الأطوال الزمانية ، لكى لا يلبث بعد ذلك أن يحدث الصوت الذى أراد إحداثه ، فتخرج ذبذباته مساوية تماماً لما قد حدّده لها فى ذهنه من قبل — ولكنْ كيف يمكن أن يَنْقُصَ المستقبل أو أن يُسْتَنْفَد ، فى حين أنه لم يوجد بعد ؟ وكيف يمكن أن يَثْرَى الماضى ، فى حين أنه لم يَعُدْ موجوداً ؟ أليس السبب فى ذلك أن هذه المظاهر جميعاً إنما تتعاقب وتتواجد فى النفس على صورة عمليات ثلاث ، ألا وهى : التوقع ، والانتباه ، والتذكر ؟ ألسنا نلاحظ أن موضوع التوقع يمرّ أمام الانتباه لكى لا يلبث أن يستحيل إلى ذكرى ؟ .. » (ك ١١ : ٣٦ ، ٣٧) .